

في العصر الجاهلي

يحسن قبل التحدث عن الشعر في العصر الجاهلي أن نشير إلى أنه كانت هناك لغة عامة متداولة في غربي الجزيرة العربية وشرقيها وشمالها وأوسطها ، هي اللغة الفصحى التي نتحدث بها اليوم ، وكانت لغة قریش سادت بين القبائل في الجزيرة العربية قبل الإسلام . وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد شعراء الحجاز في مدنه وبواديه وشعراء نجد وطبىء وغَسَّان وقُضَاعَة في الشمال وشعراء شرق الجزيرة في عبد القيس وتميم وبكر وتغلب والعباديين سكان الحيرة وشعراء اليمامة ، كل هؤلاء ينظمون أشعارهم بلغة واحدة ، هي الفصحى ، واتسعت موجاتها فشملت بعض القبائل في الجنوب مثل بني عبد الحارث سكان نجران وقبائل الأزد في جنوبي الحجاز .

ويحاول المستشرقون جاهدين القول بأن هذه اللغة الفصحى كانت مزيجاً من لهجات أهل نجد ومن جاوهرهم ، أو أنها كانت لغة قبائل معد ، أو أنها تركبت من لهجات القبائل في الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، أو أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية . وهي كلها أقوال لا يدعمها دليل ، وقد أرادوا بها أن يناقضوا أشد المناقضة ما ذهب إليه علماؤنا القدماء من أنها كانت لهجة قریش سادت في الجزيرة . ومعروف أن سيادة إحدى اللهجات في بيئة أو إقليم دون غيرها من اللهجات لا بد أن تسند لها زعامة سياسية أو روحية أو حضارية تهيم لها تلك السيادة ، بحيث تصبح لغة الفكر والمشاعر لدى الجماعة الكبيرة . وإذا بحثنا عن زعامة لإحدى القبائل من تلك الزعامات أعيانا البحث ، بينما نجد لها جميعاً ماثلة في قریش في الحقبة الجاهلية ، إذ كانت لها زعامة روحية على العرب ، فهي حارس الكعبة بيت عبادتهم وآلهتهم وأصنامهم ، وكانت تجتبي من الحجاج القادمين سنوياً إلى الكعبة إتاوات ، كما كانت حاملة مفاتيح القوافل التجارية التي كانت تجوب الجزيرة جنوباً وشمالاً وشرقاً ، مما وصل أهلها بالحضارتين الفارسية والرومية البيزنطية ،

مع احتفاظها باستقلالها وخروجها عن دائرتي النفوذ للفرس والبيزنطيين جميعاً . وكان العرب يجتمعون إلى أهلها سنوياً في أسواقها وخاصة في سوق عكاظ ، وكل ذلك أتاح للهجتها - وهي مَهْـوًى أفئدة العرب - أن تسود لهجاتهم وأن يتخذها الشعراء والخطباء والكهّان لساناً لهم .

وبما لا ريب فيه أنه كانت هناك لهجات كثيرة للقبائل ، فلكل قبيلة لهجتها الخاصة ، وفي كتب اللغة إشارات مختلفة إلى هذه اللهجات ، ومعروف أنه بقيت منها على ألسنة القبائل حتى القرن الثاني الهجري بقايا سجلها اللغويون . ولكن هذه اللهجات لم يكن أصحابها يتخذونها أداة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم ، إنما كانوا يتخذون الفصحى لغة قريش أداة لذلك ، فهي اللغة الأدبية العامة التي كان يجتمع عليها العرب في الجزيرة لا في الشمال والشرق والغرب والجنوب في نجران وبين قبائل الأزد ، بل أيضاً في أطراف اليمن وحضرموت وعمّان . وبما يثبت ذلك أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يذكر أحد من الرواة أنها وجدت صعوبة في التفاهم معه ، ولا أن مترجمين توسطوا بينها وبين الرسول في الفهم والإفهام . وكان يرسل إلى اليمن ، كما كان يرسل إلى أنحاء الجزيرة ، دعاة يعظون الناس ويعلمونهم قواعد الدين الحنيف ، ولو أنهم لم يكونوا على معرفة واضحة بالفصحى لغة قريش لكان في إرسال هؤلاء الدعاة لهم ضرب من العنت .

كانت هناك إذن في العصر الجاهلي لغة أدبية سائدة بين القبائل العربية هي الفصحى ، وكان شعراؤهم وخطباؤهم وكهانهم وحكماؤهم يتحدثون بها مرتفعين عن لهجات قبائلهم . وأخذت هذه اللغة تغزو الحميرية في اليمن ، واستولت على بعض أصقاعها في الشمال . وكانت الفوارق بين هذه اللغة أو اللهجة الفصحى ولهجات القبائل المحيطة بقريش ضئيلة ، بينما كانت تتسع كلما ابتعدنا عن مكة جنوباً أو شرقاً أو شمالاً . وقد يبدو غريباً أن يتخذ شعراء القبائل هذه اللهجة لساناً لهم ، تاركين لهجات قبائلهم الخاصة ، وكأننا في حاجة إلى أن نعيد ما قلناه من أن القبائل في الجزيرة جميعاً كانت تتخذ قريشاً قدوة لها لمكانتها الروحية والسياسية والاقتصادية ، مما جعلها تتخذ لسانها أداة لفكرها وأحاسيسها ، أداة

مشتركة تجتمع أفندتها عليها ، فهي المثل الأعلى في البيان والتعبير عن القلوب والعقول . وقد يقول قائل : كيف يتفق ذلك لكل شعراء الجزيرة في الجاهلية ولا يشذ منهم أحد ينظم أشعاره بلهجة قبيلته ؟ وهو سؤال يبدو وجهياً ، ولكن إذا عرضناه على تاريخ الشعر في الجزيرة قديماً وحديثاً تبين بطلانه ، أما في القديم وبالذات في العصر الجاهلي فلم يحدث أن شذَّ شاعر عن الجماعة ونَظَم بلهجة قبيلته أشعاره ، وأما في الحديث فإنه يعم في عصرنا بالجزيرة شعر نَبَطِي ينظمه الشعراء في أرجاء الجزيرة المختلفة : في الشمال والشرق والغرب والجنوب ، وجميعه بلغة نبطية واحدة تخالف لغات القبائل أو قل لهجاتها المحلية . وهي صورة مطابقة تمام المطابقة لما حدث للفصحى في الجاهلية ، إذ يتخذها جميع الشعراء النبطيين لغة لشعرهم ، على تباعد الشقَّة في الجزيرة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب . والطريف أن الناس هنا وهناك يفهمون عنهم ما يقولون ، مع أنهم يتحدثون بلهجات عربية مخالفة ، بالضبط كما كان يحدث في الجاهلية ، فالشعراء ينظمون بالفصحى والناس في القبائل المختلفة من حولهم يفهمون عنهم ، مع أنهم يتخاطبون في حياتهم اليومية بلهجات مخالفة . وهذا نفسه يلاحظ في الفصحى لعصرنا فإن شعراء العالم العربي من الخليج إلى المحيط يتخذونها أداة للتعبير عن فكرهم ووجدانهم ، مع أن شعوبهم تتحدث بلغات عامية محلية كثيرة ، وهم أنفسهم يتحدثون في حياتهم العاملة بهذه اللغات ، فلهم ولشعوبهم لغاتهم العامية الإقليمية ، ولهم في الوقت نفسه لغة موحدة ترتفع عن هذه اللغات ، هي الفصحى التي تشبه عملة يتداولها شعراء العرب منذ القديم في جميع بيئاتهم العربية .

وبذلك يتضح أن سيادة اللهجة القرشية على جميع لهجات القبائل العربية بحيث أصبحت اللغة الأدبية العامة في العصر الجاهلي لا تُعَدُّ شيئاً مستغرباً ، فلها شواهد تؤكد من الشعر النبطي الحديث ومن الشعر العربي المعاصر الذي يتخذها هي نفسها لسانه الشعري . وبين أيدينا أشعار جاهلية مختلفة تدل على مدى إحساس الجاهليين بانتشار ما كانوا ينظمونه من الفصحى في القبائل العربية وشيوعه بين أبنائها في كل مكان ، يقول المسيَّب بن عَمَّاس :

فَلأَهْدِيَنَّ مع الرياح قصيدةً منى مُغْلَغَلَةً إلى القَعْقَاعِ
تَرُدُّ المِياهُ فما تَزَالُ غَرِيبَةً في القُومِ بينَ تَمْثُلٍ وسماعٍ

فقصيدته إلى القعقاع تطير في الجزيرة طيران الرياح ، متغلغلة سالكة إلى الناس
سبلا قريبة وبعيدة ، وما تزال متنقلة من ماء إلى ماء ومن حي إلى حي ، والناس
منهم من يستمع إليها معجباً ، ومنهم من لا يزال يردّها وينشدها مرة بعد مرة .
ونرى شاعراً جاهلياً يهجو عشيرته ثم يندم ندماً شديداً ، لأن هجاءه ذاعت آياته
في العرب ، ولم يعد من الممكن له أن يرجع ذمه لها وهجاءه ، يقول :

نَدِمْتُ عَلَى شَتْمِ العَشِيرَةِ بعد ما مَضَتْ واستتبَّتْ للرواة مَذَاهِبُهُ
فَأَصْبَحْتُ لَا أَطِيعُ دُفْعًا لما مَضَى كما لَا يَرُدُّ الدَّرُّ في الضَّرْعِ حَالِيَهُ

فالشعر الذي ينشده شاعر ينتشر في القبائل ، ولا يمكنه أن يردّه ، كما لا يمكن
أن يُرَدَّ اللبن بعد حلبه إلى ضَرْعِهِ ، إذ سرعان ما يتلقفه أبناء القبائل عن الشاعر ،
وسرعان ما ينشرونه ويشيعونه في كل مكان . وكان مما يساعد في شيوخ الشعر
وانتشاره أن ينشده أصحابه في مجامع العرب وأسواقهم التي كان يختلف إليها كثير
من أفراد القبائل ، فكانوا يستظهرون ما يسمعون أو بعضه ويعودون به إلى قبائلهم
فيذيعونه فيها . واشتهرت أسواق مكة ، وخاصة سوق عُكاظ ، بما كان يُلقَى
فيها من قصائد وخطب ، وكانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية كبيرة ،
وكانت تقام في أثناء حج القبائل إلى الكعبة من كل عام ، فكان يجتمع فيها
كثيرون من أرجاء الجزيرة وكان يجتمع فيها الشعراء من مختلف القبائل . وكثيراً
ما كان يتنافس شبابهم ويعرضون أشعارهم على ذوى النباهة من شيوخ الشعراء
ليحكموا بينهم أيهم أشعر ، وكان ذلك يحدث نشاطاً شعرياً طريفاً ، فالناس يستمعون
إلى ما ينشد كل شاعر بين يدي الشاعر الكبير ، ويعودون إلى قبائلهم وعشائرهم
فيروون لها قصص هذه المنافسات وأي الشعراء حُكِمَ له بالتفوق على أئداده .
ولم تحتفظ كتب الأدب بهذه المنافسات وما اتصل بها من حكومات بين الشعراء
إلا ما كان للنابغة الذبياني ، وكانت شهرته قد دَوَّتْ في الجزيرة ، فكانت
تُضْرَبُ له قُبَّةٌ من أَدَمٍ (جلد) بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فيعرضون عليه

أشعارهم ، فمن ذلك أن الأعشى شاعر اليمامة أنشدته بعض شعره ثم أنشدته حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الحنساء ، في رثاء أخيها صخر :

وإن صَخْرًا لتأتُمُّ الهدأةُ بهِ كأنه علمٌ في رأسه نارٌ

فقال لها النابغة : والله لولا أن الأعشى أنشدني آنفًا لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقام حسان غاضبًا ، فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا بن أخي إنك لا تحسن إحسان الأعشى .

وهذا الخبر واسع الدلالة على ما كان يحدث في عكاظ من منافسات بين الشعراء وحكومات على أشعارهم ، وأيضًا هو واسع الدلالة على الوحدة الشعرية في الجزيرة حينئذ ، فهذا النابغة من نجد والأعشى من اليمامة وحسان من المدينة والحنساء من نجد ، وجميعاً يمثلون هذه الوحدة التي عمت بين جميع الشعراء في الجزيرة ، وحدة اللغة ووحدة المشاعر . وما يصور هذه الوحدة أن نجد شاعرًا من شرق الجزيرة يسمى راشد بن شهاب اليشكري يتهدد قيس بن مسعود الشيباني ويتوعده قائلا :

ولا تُوعِدُنِي إني إن تُلَاقِي معي مَشْرِفِي في مضاربِهِ قَصَمَ
وذمُّ يُغشِي المرءَ خِزْيًا ورَهْطُهُ لدى السَّرْحَةِ العِشَاءِ في ظلِّهَا الأَدَمُ

وهو يخيف قيسًا من مشرفيه أو سيفه وما به من قصم أو فلول من كثرة طعناته المصمية في الحروب ، وأهم من ذلك فيما نحن بصدد أنه يخيفه من سهام هجائه وما يلطِّخه به من خزي وعار حين ينشده في عكاظ لدى السَّرْحَةِ العِشَاءِ أو الشجرة العظيمة حيث تقام تلك السوق المشهورة ويضرب العرب قباب الأدم وخيامه وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة مستمعة إلى كل ما يلقيه الشعراء هناك من أشعار وأهاج مقدعة ، ويحملون ذلك إلى قبائلهم فترويه بدورها ، وسرعان ما يسير الهجاء ، ويلحق المهجوة وعشيرته منه عار الأبد . وكأنما كانت سوق عكاظ في رأي راشد اليشكري أكبر دار لإذاعة الشعر في عصره ، فما أنشد بها منه كانت تتداوله القبائل في كل حي وفي كل مكان .

وطبيعي أن سوق عكاظ كانت تستمد نشاطها الشعري من قريش لا لمكانتها

الروحية فحسب ، بل أيضاً لأنها صاحبة الفصحى التي اتخذها الشعراء في الجزيرة - أبناً ولّيت وجهك - وسيلتهم للتعبير عن خواطرهم وخلجات نفوسهم ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلته منها كان مقبولا وما ردتّه منها كان مردوداً ، ويقال إن علقمة بن عبدة التميمي أنشدها عاماً قصيدته : « هل ما علمت وما استودعت مكتوم » فقالوا له : « هذه سيمط (عَقْد) الدهر » ثم عاد إليهم في العام القابل ، فأنشدهم قصيدته : « طَحَا بك قلبٌ في الحسان طَرُوبٌ » فقالوا : « هي وأختها السابقة سيمطا الدهر » ودوّت بذلك شهرته في الجزيرة .

ونحن إنما نريد أن نخلص من ذلك كله إلى أنه كانت للشعر الجاهلي لغة عامة واحدة هي لهجة قريش التي سُمّيت فيها بعد بالفصحى ، وأن هذه اللغة المشتركة أتاحت للشعر الجاهلي دوراناً وانتشاراً واسعاً حينذاك ، فقد كان يروى وينشد في كل قبيلة وعلى كل لسان ، ولذلك كان طبعياً أن يحتكم الشعر من أمثال علقمة بن عبدة إلى أصحاب هذه اللغة ليجزوههم ويفرضوهم على شعراء الجزيرة . ولم تكتف قريش بذلك فقد تحولت بسوقها عكاظ من سوق تجارية إلى سوق أدبية كبيرة يتنافس فيها الشعراء ويحتكمون تارة إلى بعض النابهين من قريش وتارة إلى بعض النابهين من شعراء العرب الذين خلّبوا ألباب الناس بأشعارهم .

وهذه اللغة العامة التي شاعت في العصر الجاهلي هي التي أتاحت للشعر في الجاهلية أن يحمل طوابع شعبية ، وهي طوابع تلاحظ فيه من جوانب كثيرة ، سواء من حيث الجماعات التي تنشده أو من حيث الأفراد الذين ينظمونه . أما الجماعات فلعل من أهم ما كانت تشترك فيه التراتيل الدينية في أثناء الحج والطواف ، فقد كانت القبائل تتقدم إلى الكعبة سنوياً للحج منشدة أناشيد دينية مختلفة سموها باسم التَّلْبِيَةِ ، وكان لكل قبيلة تليبيتها الخاصة ، وفي القرآن الكريم : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديّةً) والمكاء : الصفير ، والتصديّة : التصفيق . وسمّوا الغناء الذي كان يصحب هذه التصديّة وذلك الصّفير باسم « النَّصْب » أخذاً أو اشتقاقاً من النَّصْب وهي الأوثان وكل ما نُصِب وعُبد من دون الله ، وفي الحديث النبوي : « كلهم كان يَنْصِبُ » أي يغني غناء النَّصْب

في تلبياته وتهليلاته للآلهة . وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي صور مختلفة لتلبيات القبائل في الجاهلية . ويقول أبو العلاء المعري في رسالة الغفران : « جاءت تلبيات العرب على ثلاثة أنواع ، مسجوع لا وزن له ، ومنهوك ، ومشطور ، ويسوق أمثلة للنوع المسجوع ، ويتبعها بأمثلة للرجز المنهوك أو المحزوء من مثل تلبية قبيلة النَّمِر :

لَبَّيْكَ يَا مُعْطَى الْأَمْرِ لَبَّيْكَ عَنْ بَنِي النَّمِرِ
جُثْنَاكَ فِي الْعَامِ الزَّمَرِ نَأْمَلُ غَيْثًا يَنْهَمِرُ
يَطْرُقُ بِالسَّيْلِ الْخَمِرِ

والزمر : المجذب . والحمر : الشجر الملتف . فهم يطلبون من ربهم أو إلههم أن يدفع عنهم القحط والجذب المميت ، وينزل عليهم السماء مدراراً ، فتحيي أرضهم بعد ممات وتنبت الزرع والنبات . ويدخل أبو العلاء في المنهوك من التلبيات ما يجيء محزواً على وزن المنسرح ، وينشد منه تلبية قبيلة هَمْدَان :

لَبَّيْكَ رَبُّ هَمْدَانٍ مِنْ شَاحِطٍ وَمِنْ دَانٍ
جُثْنَاكَ نَبْغِي الْإِحْسَانَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِذْعَانٍ
نَطْوِي إِلَيْكَ الْغَيْطَانَ نَأْمَلُ فَضْلَ الْغَفْرَانِ

والشاحط : البعيد . والحرف : الناقة . يكون بذلك عن بُعد الشُّقَّة بين منازل قبيلتهم في شمالي اليمن وبين الكعبة وما تحشموه من عناء شاق . ويذكر أبو العلاء تلبيات أخرى على قواف مختلفة ، منها تلبية لقبيلة بكر وثانية لبني تميم وثالثة لبني سعد على هذا النمط :

لَبَّيْكَ عَنْ سَعْدٍ وَعَنْ بَنِيهَا وَعَنْ نِسَاءِ خُلْفَاهَا تَغْنِيهَا
سَارَتْ إِلَى الرَّحْمَةِ تَجْتَنِيهَا

ويلاحظ أبو العلاء أن المطرّد عند العرب في التلبية أن تكون من الرجز وأنها إذا نظمت من أوزان القصيد حذفت منها بعض أجزائها ، يقول : « ولم تأت التلبية بالقصيد (يريد تام الأجزاء) ، ولعلهم قد لبّوا به ، ولم تنقله الرواة » لطوله أو لعدم

اهتمامهم به . وفي كتاب المحجّر لابن حبيب فصل طويل عن تلبيات القبائل للأصنام والأوثان ، من ذلك تلبية حجاج اللات : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ :

كفى [لنا] بِبَيْتِنَا بَنِيَّةٍ ليس بمهجـورٍ ولا بليَّةٍ
لكنه من تربية زكيةً أربأه من صالحى البرية

وكان بيت اللات بالطائف على صخرة : وكانت قبيلة ثقيف تضاهى به بيت الكعبة ، وكان له حَجَبة وكسوة . وكان لتميم صنم يُعرَف باسم « شمس » وكان له بيت ، وكانت تلبية من نسك له من حجيجه : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ :

لَبَّيْكَ مَا نَهَارُنَا نَجْرُهُ إِذْ لَاجِهَ وَحَرُّهُ وَقَرُّهُ
لا نتقى شيئاً ولا نضـرُّه حَجًّا لربٍّ مستقيم برُّه

وكان صنم « مناة » بشاطىء بحر القلزم أو البحر الأحمر ، وكانت تعبده قبيلة الأزد اليمنية والأنصار أهل المدينة ، وكانت تلبيتهم له : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ :
يَبْرُكُ النَّاسُ وَيَهْجُرُونَكَ مازال منا عَشَجٌ يأتونكَ
إنا على عُدوانهم من دونكَ

والعُجج : الجماعة الكبيرة من الناس . وكان لبكروسائر ربعة صنم ينسكون له يسمى « المحرق » وكانت تلبيتهم له : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ :

لَبَّيْكَ حَجًّا حَقًّا تَعْبُدًا وَرَقًّا

وكان أكبر أصنام قريش « هُبَل » صنم الكعبة الكبير ، وكانت تلبية من نسك له وقدَّم إليه قربانيه : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ :

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ فَإِنَّنَا لَقَاحُ حَرَمْتَنَا عَلَى أَسِنَّةِ الرَّمَاحِ

يُحْسِنُ النَّاسُ عَلَى [ذَاكَ] النِّجَاحِ

واللَّقَاح : الذين لم يدينوا قط لأحد ، ومعروف أن قريشاً كانت لَقَاحًا في الجاهلية ، فلم يصب أحداً منها سياء ، ولم يستطع ملوك فارس وبيزنطة أن يفرضوا عليها ولاء ولا ميادة ، وكانت — ولا تزال — حرمًا آمنًا وحِمَى محرمًا لا يراق فيها

دم ولا يُشهر سلاح . ونكتفى بهذه التلبيات الشعرية ، وواضح أنها كانت تسهم فيها قبائل الجزيرة ، وأنها كانت تأخذ طابعاً جماعياً شعبياً ، ولم يكونوا ينشدونها في الحج وحده ، بل كانت تنشدها أيضاً القبائل حين تفرع إلى ألفتها في الشدة تستغيث بها ، حتى تنقذها مما ألم بها من الخطوب والكوارث .

ونجد للنساء حينئذ دوراً هاماً في هذا الشعر الجماعي ، إذ كن يؤلفن في حفلات الأعياد والأعراس وحين يظهر في القبيلة شاعر كبير ما يشبه الجوقات في ملاعب التمثيل ، فيرقصن ويلعبن على المزاهر وينشدن بعض الأغاني . وهذا في السلم ، أما في الحرب فكن يؤلفن جوقات تحمّس الرجال وتثير فيهم الحمية على نحو ما يُروى عن هند بنت عُتْبَةَ ونسوة من قريش في غزوة أحد ، إذ كن يضربن على الدفوف . وكانت هند تغنى في تضاعيف هذا الضرب بمثل قولها :

إِنْ تُقْبَلُوا نَعَانِقُ وَنَفْرِشِ النَّسَارِقُ
أَوْ تَدْبَرُوا نَفَارِقُ فَرَارِقَ غَيْرِ وَاِمَقِ

وتردّ عليها النسوة . وهن يعلننّ إلى الرجال من قريش أنهن يُكْرِمُنَهُمْ ويفرشنّ لهم الوسائد إن استأثروا في الحرب فإن فروا لم ييكونن بل فارقوهن فراق غير المحبين . وكن حين يَعدُن مع قبائلهن وعشائرهن من الوقائع والحروب يقمن مآتم كبيرة للشجعان ذوى البأس المقتولين ، وما يزلن يَنُحْنُ عليهم حفراً للقبيلة كي تعود فتأخذ لهم بالتأر وتفتك بقاتليهم فتكاً ذريعاً . وتدل الأخبار المختلفة على أنه كان يشيع بين نساء الجاهلية في نواحهم على القتل ضرب من « التعديد » الذي نعرفه في مآتم مصر . فما تزال امرأة تنوح ويردّ عليها صواحبتها لاطمات نادبات مرددات بعض ما تقول . ومن مآتمهم المشهورة مآتم كُلَيْبِ التغلبيّ حين قتله صهره جَسَّاس من بني بكر ، ويقال إن نساء الحى قلن لأخته : رَحِّلِي زوجته جليلة « أخت جساس » عن مأتمك فإن قيامها فيه شامة وعار علينا عند العرب ، فتوجهت إليها قائلة : يا هذه اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، فخرجت وهي تندب وتنوح وتنادى بالويل لما سينشب بين تغلب وبكر من حروب ساحقة منشدة مولولة :

يا قتيلا قَوْض الدهرُ بهِ سَقَفَ بيتيَّ جميعا من عَلِ
هدم البيتَ الذي استحدثته وانثنى في هَدم بيتي الأولِ
خصني قتلُ كليبٍ بِلَظي من ورأى ولَظي مُستقبلِ

وكأنما ارتسمت في خيالها الحروب الطويلة التي اندلعت بين القبيلتين الكبيرتين لمدة أربعين عاماً فيما يقال . ولم يكن ينحن على قتلاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يزاولن ذلك سنوات حتى تأخذ القبيلة هن بالثأر ، وكن يندبنهن في المواسم العظام على نحو ما يروى عن الحنساء ، فقد كانت تخرج إلى سوق عكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية ندبا حاراً ، وكانت تحكيها في هذا الندب هند بنت عتبة قتيل غزوة بدر .

وهذه الطوايع الشعبية التي تلاحظ في شعر الجماعات من النساء والرجال تلتقي معها طوايع أخرى في شعر الأفراد ، لعل خير من يمثلها شعراء الحُداء ، إذ كانوا يحدون الإبل في أثناء سراها ليلاً بأراجيز وأشعار . وكان الرجز هو الغالب عليهم في الحُداء حين ينتشر ظلام الليل ويُرْخى سُدوله على كل شيء في الكون ويعم السكون والركود ، حينئذ يعمد السارى في الصحراء وراء بعيره أو فوق منته إلى شطور من الرجز يجد فيها شيئاً من المتاع والنشاط حتى لا تضعف مُنته وقوته . وكأنما كان يوقع الجاهلي رجز حُدائه على حركة بعيره ووقع أقدامه في الصحراء ، وهو حُداء شعبي نجده في كل مكان وعلى كل لسان . وكانوا يستخدمون هذا اللون من الرجز الشعبي في كل عمل لهم يقتضى حركة متصلة ، فهم يستخدمونه في حروبهم ، فلا يصول محارب ويجول في ميدان جاهلي إلا وهو ينشد بعض الرجز أو بعض الشعر مستعيناً بذلك على الحركة والنشاط ، وأمامنا حروبهم كحرب البَسُوس بين بكر وتغلب وكحرب داحس والغبراء بين عبيس وذُبْيَان فإننا لا نكاد نرى أحداً يُقبل على القتال إلا وهو يلوک أشعاراً رجزاً أو غير رجز ، ودائماً الرجز هو الغالب . وبالمثل كانوا يصنعون ذلك حين يستسقون لأنفسهم أو لإبلهم وأغنامهم من مورد عذب ، وكذلك حين كانوا يحفرون بئراً . وفي كتاب فتوح البلدان للبلاذري فصل طويل يعرض فيه الأرجاز التي نُظمت قبل الإسلام في حفر آبار مكة ، من ذلك حَفَر عبد شمس بئرین ساهما خُمّاً ورُمّاً ، وفي ذلك يقول :

حَفَرْتُ خُحْمًا وَحَفَرْتُ رُمًّا حَتَّى أَرَى الْمَجْدَ لَنَا قَدْ تَمَّ
وَحَقَّرَ قُصَيَّ جَدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَأْسِهَا الْعَجُولَ ، وَفِي ذَلِكَ
يَقُولُ أَحَدُ الرِّجَازِ :

نَرَوِي عَلَى الْعَجُولِ ثُمَّ نَنْطَلِقُ قَبْلَ صُدُورِ الْحَاجِّ مِنْ كُلِّ أَفْقٍ
إِنْ قُصَيًّا قَدَوْنِي وَقَدْ صَدَقَ بِالشُّبُعِ لِلنَّاسِ وَرِيٌّ مُغْتَبِقٌ
وَحَفَرُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بِرَأْسِهَا بِذَرٍّ وَأُخْرَى سَمَاهَا سَجَلَةٌ . وَفِي ذَلِكَ
تَقُولُ صَفِيَّةُ ابْنَةِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مَفَاخِرَةَ مَبَاهِيَةِ :

نَحْنُ حَفَرْنَا بِذَرًّا تَرَوِي الْحَجِيجَ الْأَكْبَرَا
وَحَفَرُ بَنُو عَدَى عَشِيرَةِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ بِرَأْسِ الْحَفِيرِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رَاجِزُهُمْ :
نَحْنُ حَفَرْنَا بِفَرْنَا الْحَفِيرَا بَحْرًا يَجِيئُشُ مَاوُهُ غَزِيرَا

وَحَفَرُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ « زَمَزَمًا » الْبُئْرُ الْمَشْهُورَةُ بِمَكَّةَ حَتَّى الْآنَ .
وَيَتَصَلُّ بِأَشْعَارِ الْحَرَكَةِ الدَّائِبَةِ وَأَرَا جِيزَهَا مَا اسْتَهْرَعْنَ نِسَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ تَرْقِصِهِنَّ
لَأَطْفَالِهِنَّ تَدْلِيلًا لَهُمْ وَلَعِبًا مَعَهُمْ وَمَعَابَثَةً ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِ أُمِّ عَقِيلٍ زَوْجِ أَبِي طَالِبٍ
تَرْقِصُ ابْنَهَا عَقِيلًا ، وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي الْمَهْدِ وَتَلَا فَيْفَهُ :

إِنْ عَقِيلًا كَاسَمَهُ عَقِيلُ وَبِأَبِي الْمَلْفَفِ الْمَحْمُولُ
أَنْتَ تَكُونُ مَا جَدُّ نَبِيلُ إِذَا تَهَبُّ شَمَالُ بَلِيلُ

وَعَقِيلُ كُلُّ شَيْءٍ : أَنْفُسُهُ وَأَفْضَلُهُ . وَالشَّمَالُ : رِيحُ شِمَالِيَّةٍ بَارِدَةٍ . وَبَلِيلُ :
رَطْبَةٌ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أُمِّ الْفَضْلِ الْهَلَالِيَّةِ تَرْقِصُ ابْنَهَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ
عَبْدِ الْمَطْلَبِ :

تُكَلِّتُ نَفْسِي وَتُكَلِّتُ بِكْرِي إِنْ لَمْ يَسُدَّ فِهْرًا وَغَيْرَ فِهْرٍ
بِالْحَسَبِ الْعِدِّ وَيَذُلُّ الْوَقْرَ حَتَّى يُوَارِيَ فِي ضَرْيَحِ الْقَبْرِ

وَقَوْلُ ضُبَاعَةَ بِنْتِ عَامِرٍ تَرْقِصُ ابْنَهَا الْمَغِيرَةَ بْنَ سَلَمَةَ الْخَزَوِيَّ :

نَمَى بِهِ إِلَى الذُّرَى هِشَامُ قَرْمٌ وَأَبَاءٌ لَهُ كَرَامُ
مَنْ آلَ مَخْزُومٍ هُمُ الْأَعْلَامُ الْهَامَةُ الْعَلِيَاءُ وَالسَّنَامُ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على أن الشعر في الجاهلية كان اللغة العامة لأهل الجزيرة ينظمونه في الحركة السريعة وفي الفرح والحزن وفي الأدعية والابتهالات الدينية . وكان ينظمه رجالهم ونساؤهم ، كما كان ينظمه سادتهم وصعاليكهم ، بل إن صعاليكهم قد تتفوق أشعارهم على أشعار السادة كما ، وإن أسماءهم لتتردد إلى اليوم على جميع الألسنة من مثل الشنْفَرَى وتَأْبَطُ شَرًّا والسُّلَيْكُ بن السُّلَيْكَة وعروة بن الورد الذي اشتهر بأنه كان يؤثر فقراء قبيلته من بني عَبَسَ بكل ما ينهب من إبل الأثرياء وأموالهم ، وله يقول مصوراً كرمه الفيّاض وإيثاره البرءاء على نفسه :

إِنِّي امْرُؤٌ عَاقٍ إِنَائِي شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَاقٍ إِنَائِكَ وَاحِدُ
أَفَرَّقَ جِسْمِي فِي جِسْمٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاخَ الْمَاءِ ، وَالْمَاءُ بَارِدُ

وهو يصور معنى إنسانياً مثالياً ، إذ لامة بعض أصحابه بأنه نخيل شاحب اللون ، فأجابه إن كثيرين من العفاة أو ذوى الحاجة أشركهم في إنائي وطعائي ، أما أنت فلا تشرك أحداً معك ، ولذلك سميت ، بينما نخلت وضممت إذ أترك طعائي لكثيرين أفرق جسمي في جسومهم مؤثراً لهم بطعائي راداً شراسة جوعي ومسغتي مكثفياً بشرب الماء البارد الصافي في ليالي الشتاء القارسة . وقد خلف ديواناً طريفاً من الشعر ، مثله في ذلك مثل الشنفرى وتأبط شرّاً ، فأشعارهم ظل جيلهم والأجيال التالية له ترويحاً حتى دُوِّنت في العصر العباسي .

وشركة جميع الطبقات والأفراد في الشعر الجاهلي على هذا النحو تدل أوضح الدلالة على طوابعه الشعبية . إذ كان يصدر عن جميع أفراد الشعب في الجزيرة ، لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين شاب وشيخ ولا بين سيد وصعلوك . وتكتظ كتب الأدب والطبقات بأسماء كثيرين من شعراء الجاهلية حتى ليفوتون الحصر والعَدّ ، ولا حظ ذلك قديماً ابن قتيبة ، إذ يقول : « الشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم يحيط أو يقف من وراء عددهم

واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال . ولا أحسب
أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه
ولا قصيدة إلا رواها .

وما يدل بقوة على الطوايع الشعبية للشعر الجاهلي تصويره خواطر الجاهليين
وكل ما نبضت به قلوبهم في السلم وفي الحرب . ومعروف أن الجزيرة استحالت
في الجاهلية إلى ما يشبه ميداناً كبيراً ما تزال تقتتل فيه القبائل ، وما تزال تتصايح
فيه الأبطال وتُسكَل السيوف وتصوب الرماح والنبال وتُدَق الأعناق والرءوس ،
والوحوش تتخاطف الأشلاء والغة في الدماء . وفي كل حي وفي كل دار يصرخ
الرجال والنساء : الثَّارُ الثَّارُ ، فدائماً تحزّ الرقاب سيوف وتطعن القلوب رماح
ودائماً دماء مسفوحة ، وبذلك كانت حياة الجاهليين حروباً مستمرة فكل قبيلة دائماً
وائرة موقورة أو قاتلة مقتولة ، وصوّر ذلك دُرَيْد بن الصَّمَّة أحد فرسانهم قائلاً :

وإنّا للخمِّ السَّيفِ غيرَ نَكِيرَةٍ ونُلجِمه حيناً وليس بذي نُكْرٍ
يُغار علينا واطرين فيُشتَفَى بنا إن أَصَبْنَا أو نُغَيِّر على وترٍ
قسمنا بذاك الدَّهْرَ شطرين بيننا فما ينقضى إلّا ونحن على شطرٍ

فهم دائماً طعام لسيوف أعدائهم ، وأعداؤهم طعام لسيوفهم ، في غير إنكار ،
فتلك حياتهم لا يزال الشجاع منهم يقاتل دون أن يلقي السلاح أو يستسلم ، حتى
الموت الزوأم ، أو حتى يقتله الأعداء ، ففي ذلك شرفه ومجده . وكأنما أوقات دهرهم
قسمان : قسم لانتصاراتهم على أعدائهم ، وقسم لانتصارات أعدائهم عليهم ،
فحياتهم كلها حرب وقتال ، حتى ليصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر حياتهم ،
بل إنه ليوشك أن يكون كل حياتهم ، ولذلك مظهر واضح في أشعارهم : أن أكثرها
يدور في الحماسة مما جعل أبا تمام حين يؤلف مختاراته من الشعر الجاهلي وغير
الجاهلي يسميها ديوان الحماسة تغليبا للموضوع الأساسي في أشعار الجاهليين على
غيره من موضوعات الشعر وأغراضه .

ومن الحق أن الشاعر الجاهلي كان لسان قبيلته ، يسجل مآثرها ، ويتغنى
بمفاخرها وأمجادها وعلى رأسها الأجداد الحربية ، وكأنما كان بوقاً لها ، يعبر عن

أهوائها وكل ما يجول في خواطرها ، وصوّر ذلك تصويراً قوياً دُرَيْد بن الصِّمّة
شاعر عشيرة غَزِيَّة الذي ذكرناه آنفاً قائلاً :

وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غوتْ غويتُ وإن ترشُدْ غَزِيَّةُ أرشُدِ

فرشده يستمد من عشيرته غزية وكذلك غيّه ، وكأنما ليس لشاعر الجاهلية
وجود مستقل عن عشيرته ، فهي تفرض نفسها عليه فرضاً أو قل إنه هو الذي يفرضها
على نفسه ، ويتضح ذلك في أشعاره التي لا تدور حول الحماسة فحسب ، وإنما
تدور أيضاً حول الفخر ، إذ يفخر بوقائع قبيلته وانتصاراتها معدداً لها ، على نحو ما
يلقانا في معلقة عمرو بن كلثوم ، وهي زاخرة بروح عاتية تمثل الروح العربية خير
تمثيل ، روح الفتوة والقوة والنفوس الصلبة التي لا تُعَصَّر ولا تلين . ولم يمثلوا لنا في
أشعارهم قوتهم الحربية وحدها ، فقد مثلوا لنا أيضاً قوتهم أو بطولتهم الخلقية ، على
نحو ما يلقانا عند بطلهم المشهور عنتره في مثل قوله :

لا تَسْقَى ماء الحياة بذلّةٍ بل فاسْقَى بالعِزِّ كَأْسَ الحَنْظَلِ
ولقد أَيْبَتْ على الطَّوْى وأظَلَّه حتى أنال به كريمَ المأكَلِ

فهو يرفض الذل ، بل إنه يرفض الحياة جميعها إن دخلتها أي شائبة منه ،
أما العز فإنه مبتغاه ومنه وإنه ليقبل على كثوسه حتى لو كانت مليئة بنقيع الحنظل
الذي لا يطاق . وهو يؤثر الطوى أو الجوع الشديد على تذوق الطعام الكريه الذي تعافه
النفوس الأبية . وكان تجسده في أشعاره للبطولة العربية من وجهيها الحربي والخلق سبباً
في أن ترفعه العصور التالية تمثالاً لبطولة العرب وشعاراتها الرفيعة . ويكتب له
المصريون في العصر الفاطمي قصة ، يمتزج فيها السجع بالشعر تصويراً بطولته ، وينمى
المصريون القصة حتى تتخذ شكلها النهائي في القرن السابع الهجري ، وفيها يشارك
عنتره العرب في حروبهم ضد الفرس وبيزنطة وروما وفي الأندلس وفي الحروب
الصليبية . وبذلك تصبح قصة عنتره إلياذة الأجداد الحربية للعرب على مر العصور .
ولا يهمنا الآن عنتره الأسطورة ، وإنما يهمنا عنتره الفارس الجاهلي الذي مثل
بطولة الجاهليين الحربية والنفسية السلوكية تمثيلاً قوياً ، وقلما يوجد في عصرنا
من لا يحفظ له البيتين التاليين اللذين خاطب فيها محبوبته عبلة ابنة عمه :

ولقد ذكرتكَ والرماحُ نواهلُ منى وبِضِّ الهندِ تَقْطُرُ من دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السِّيفِ لَأَنِّهَا لمعتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ المتبسمِ

وهي صورة رائعة لاستثثار حب عبلة به ، حتى في أخرج المواقف ، والرماح مصوبة إليه من كل جانب ، والسيوف تكاد تنقض عليه ، فذكرها لا تفارقه ولا تفارق ابتسامتها خياله ، حتى ليرى ثغرها من خلال تألق السيوف ، فيهم بتقبيلها . مفاجأة بديعة في التخيل والتصور . وكان عنزة في أشعاره مثله مثل جميع الشعراء الجاهليين يقدم دائماً بطولته الحربية لحبوبته وأيضاً بطولته النفسية الخلقية . ولعله أقدم المحبين العذريين عند العرب ، وهو يعبر في غزله لعبلة عن وجد ما بعده وجد وعذاب لا يشبهه عذاب . وذلك هو الحب العذري الذي عُرف به العرب ، وهو حب يتحول إلى ما يشبه محبة لا يستطيع الحب تخلصاً منها ، حب كله ضئى وآلام . ولم يكن هذا هو الغالب على الحب الجاهلي ، بل كان الغالب الحب المادى على نحو ما نعرف عند امرئ القيس في معلقته . ومعروف أن الشعر الجاهلي كان يحمل أغراضاً أخرى مثل الرثاء والمديح والهجاء . وكلها كانت توجه في أكثر الأمر للجماعة ، أو قل كان الشاعر فيها يصدر عن الجماعة . فهو في مرثيته إنما يقصد غالباً إلى استثارة الحمية بتأبينه القتلى ، حتى تهب القبيلة للأخذ بالثأر . وهو بالمثل في مدائحه إنما يتغنى بأجدادها وأبطالها وما وضعوا على رأسها من أكاليل الغار . وكذلك الشأن في أحاجيه فهو يحاول بها جاهداً أن ينزع عن قوس شعره سهاماً مسمومة لأعداء قبيلته ، ويقول الجاحظ : « لأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء » والأمر معروف ، وهو ما ينزله الهجاء بالمهجوين من ذم مقدع تلوكه الألسنة في مجالس القبائل والعشائر وفي الأسواق والمجامع .

وعلى هذا النحو كان الشاعر الجاهلي تعبيراً صادقاً عن قبيلته أكثر منه تعبيراً عن نفسه ، بل لعله لم يكن يعنيه أمر نفسه في شيء ، حتى في الغزل والحب كان يصور مشاعر الجماعة ، وخاصة الشعراء الذين لم يعرفوا بحب مثل زهير ، فنسيبه وغزله إنما هما تعبيران عن أحاسيس شعبية عامة . ولندع الأغراض الشعرية عند القوم إلى التأمل في مطولاتهم أو قصائدهم الطويلة فإننا سنراها تتخذ منهجاً مرسوماً لاتخاذ عن يمينه ولا يسرة ، فهي تستهل بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، يشترك

في ذلك جميع الشعراء، ثم يصف الشاعر رحلته في الصحراء، وكثيراً ما يشبه ناقته التي تحمله ببعض الحيوانات الوحشية ويستطرد إلى تصويرها، وقد يعرض مناظر الصيد بين الكلاب وبقر الوحش وثيرانه. ثم يخرج إلى الغرض من قصيدته حماسة أو فخراً أو مديحاً أو رثاء أو هجاء. وهذا المنهج الثابت للقصيدة الجاهلية في كل مكان يدل بوضوح على أنها كانت عملاً شعبياً جاهلياً عاماً، عملاً ثبت في نفوس صانعيه من كثرة تكراره تلقاء الآذان والأسماع، وتؤكد ذلك تقاليدته الراسخة في أوزانه وقوافيه، ومهما شرقنا أو غربنا أو انجهمنا إلى الشمال أو الجنوب، فهو يتألف من قصائد موزعة على وحدات موسيقية يسمونها الأبيات، وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها اتحاداً تاماً.

وظواهر كثيرة تدل على دوران هذه القصائد دوراناً شعبياً، فهي تنشأ في كل حي، والشعراء يتداولونها بينهم بحيث يصبح ما ينظم في غربى الجزيرة ينشد في شرقها وبالمثل ما ينظم في شرقها يُنشد في غربها، وقل ذلك بالقياس إلى كل قبيلة في الشمال والجنوب، فليس هناك شعر خاص ببيئة دون بيئة، بل الشعر كله عام للجزيرة تشترك فيه شركة كبرى. ولعل هذه الشركة هي التي جعلت الشعر الجاهلي يدور حول معان واحدة، فما يقوله طرفة شاعر البحرين في الناقة أو في الفتوة يصبح عملة متداولة بين جميع الشعراء، وبالمثل ما يقوله امرؤ القيس على مقربة من تيماء في الحجاز يتناقله جميع الشعراء سواء وصفه للفرس أو للغيث والمطر أو لمغامراته مع المرأة. وما يقوله عمرو بن كلثوم التغلبي في شرق الجزيرة وعنتره العبسي في غربها من أشعار حماسية يحاكيه جميع الشعراء. وكأنهم ينسبون إلى قبائل في حياتهم ومواطنهم أما في الشعر فينسبون إلى الجزيرة جميعها، وهو انتساب يتضح في أن كل شاعر كان يغزو شعره بأجود ما سمعه أو حفظه من الشعر، وهو غذاء جعلهم يتواردون على معان واحدة كما أسلفنا، كما جعلهم يحاولون من حين إلى حين إعادة صياغة هذه المعاني صياغة جديدة، بحيث يضيفون إليها إضافات تروع السامعين على نحو ما يلاحظ مثلاً في تشبيه المرأة بالظبية، فشاعر يشير إلى الشبه بينهما دون محاولة لوضع خاص أو تفصيل يضيفه، وشاعر يشبه المرأة بها وهي تمد جيدها إلى شجر السلم الناضر، وشاعر يجعل الشبه في جيد كل منهما واستوائه وجماله، وشاعر يجعل الشبه في حور العين. ومعنى ثان تصويرهم

للرجال بالكواكب والنجوم ، فشاعر يجعل رجال قبيلته وشجعانها كواكب ونجوماً
ساطعة لا تلم بها غبرة ولا قتمة . وشاعر يجعلهم كواكب ونجوماً مضيئة في الليل
البهيم ، وينفذ لتقيط بن زُرارة التميمي من خلال هذا الركام من الصور إلى قوله
في رجال قبيلته وسادتها :

نجومٌ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبُهُ
أضاءتْ لهم أحسابُهُم ووجوهُهُم دُجى الليل حتى نظمَ الجَزَعُ ثاقبُهُ

وكانه يجعلهم كواكب حقيقية تضيء الليالي المظلمة ، حتى ليبلغ من ضوئهم
ونورهم أن ينظم الثاقب فيه خرزَ الجزع في خيوطه وعقوده الجميلة . ويتناول النابغة هذا
المعنى ويضيف إليه إضافة جديدة في مديحه للنعمان بن المنذر صاعداً به درجات
فوق ملوك الغساسنة إذ يقول :

وإنك شمسٌ والملوكُ كواكب إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

وتنبه أسلافنا لهذا الجانب في الشعر الجاهلي ، ففتحوا له في كتبهم باب
السراقات ، غير ملتفتين إلى ما يشير إليه عند الجاهليين من دوران أشعارهم على
جميع الألسنة بحيث هيأت لهذا التوارد الواسع على الصور والتشبيهات . ولعل مما يدل
دلالة قاطعة على أن الشاعر الجاهلي مهما بعدت الشقة بينه وبين شعراء القبائل
الأخرى كان يستظهر أشعارهم وأنها كانت تتداول تداولاً واسعاً أننا نجد صوراً
وعبارات يتبادلها الشعراء مع تباعد أوطانهم تباعداً شديداً . فإذا قال امرؤ القيس
بالقرب من تيماء في غربى الجزيرة بيت معلقته المشهور :

وقوفاً بها صَحْبِي عَلَى مَطِيَّهِمْ يقولون لا تهْلِكُ أَسَى وَتَجْمَلُ

وجدنا البيت يطير مع معلقته طيراناً مسرفاً في البعد ، حتى ينزل بأقصى الشرق
من الجزيرة في البحرين ، فإذا طرفة يكاد ينقله بحذافيه إلى معلقته قائلاً :

وقوفاً بها صَحْبِي عَلَى مَطِيَّهِمْ يقولون لا تهْلِكُ أَسَى وَتَجْلُدُ

ومعلقة طرفة بدورها تطير هي الأخرى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ،
ويطير معها مطلعها الطريف المعروف :

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدُ تَلُوحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

وهو يذكر، ذكرى لا تبرح خياله، أيامه الخوالي مع صاحبتة خولة، ويلم بالأطلال الباقية من هذه الأيام، وتلمع أمام عينيه لمعاناً قوياً، ويحس كأنها ثابتة على الزمن وفي قلبه ثبات الوشم الذى يُغَرِّزُ بالإبر في ظاهر اليد، فيظل أثره باقياً لا يزول ولا يحول. وتعجب المعلقة زهيراً المُزَنَّى النسب الغطفاني النشأة والمترن في غربى الجزيرة، فيحاول أن يأخذ صورة الوشم لنفسه في معلقته، إذ يقول عن ديار صاحبتة:

دِيَارُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَّاجِعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمٍ

وزهير يحفر علامات الوشم في المعصم بأقوى مما حفرها طرفه في ظاهر اليد، إذ يشبّتها في نواشره أو عروقه وعصبه، حتى لا تزول أبداً، وكأنه لا يريد لأطلال صاحبتة أن يلحقها شيء من الزوال أو الفناء. ويتداول الشعراء في كل ركن من أركان الجزيرة هذه الصورة، فيقول ربعة بن مرقوم الضبي في وصف الأطلال:

تَخَالُ مَعَارِفَهَا بَعْدَ مَا أَتَتْ سَنْتَانِ عَلَيْهَا الْوُشُومَا

المعارف: الرسوم والأطلال. ويقول الخبّل السَّعْدِيُّ التميمي:

وَكَأَنَّ مَا أَبْقَى الْبَوَارِحُ وَأَمْطَارُ مِنْ عَرَصَاتِهَا الْوَشْمُ

والبوارح: الرياح الشديدة. والعروضات: الساحات. ويقول عبد الله بن سكمة الغامديّ الأزدي:

أَمَسْتُ بِمُسْتَنِّ الرِّيحِ مُفِيلَةً كَالْوَشْمِ رُجْعٌ فِي الْيَدِ الْمُنْكَوسِ

ومستنّ الرياح: مجراها. ومفيلة: مطموسة. والوشم المنكوس: المعاد مراراً. والأبيات التي صوّرت فيها الأطلال على هذا النمط بالوشم كثيرة.

وصورة ثانية في وصف الأطلال لا تقلّ عن هذه الصورة كثرة، بل لعل شاعراً نابهاً في الجاهلية لم يلمّ بها، ونقصد وصف رسوم الأطلال بأنها تشبه نقش الكتابة، إذ نراه يدور على كل لسان، فن ذلك قول امرئ القيس:

لَمِنْ طَلَّلْ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانِي

والعسيب : صعف النخل ، وكانوا يسوّونه ويكتبون عليه . والزبور : الكتاب .
وعلى شاكلة هذا البيت قول أبي ذؤيب الهذلي :

عرفت الديسار كرمهم الكتا ب يزبره الكاتب الحميري

يزبره : يكتبه . وإذا كان هذا الشاعر الحجازي شبه الأطلال بكتابات الكاتب الحميري اليمنى فإن الحارث بن حلزة شاعر بكر في شرق الجزيرة شبهها بكتابات الكاتب الفارسي للمهراق أو الصحف ، إذ يقول :

لمن الديار عَفَوْنَ بالحُبْس آياتها كمهراقِ الفُرسِ

والحبس : موضع . والآيات : الآثار والأعلام . ويدخل غير شاعر على الصورة إضافة جديدة ، فيقول المرقش الأكبر من بني قيس بن ثعلبة :

الدارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رَقَشَ في ظَهْرِ الأديمِ قَلَمٌ

والرقيش : التزيين والتنميق . والأديم : الجلد . ويقول سلامة بن جندل القمي :

لمن طَلَّلَ مثلُ الكتابِ المنمَّقِ خَلَا عَهْدُهُ بَيْنَ الصُّلَيْبِ فَمُطَرِقِ

والصليب ومطرق : موضعان . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي وهو من شرق الجزيرة مثل سابقه :

لأبْنَةِ حِطَّانَ بِنِ عَوْفٍ مَنَازِلُ كما رَقَشَ العُنُوانَ في الرِّقِّ كاتبُ

والرق : الجلد الرقيق . ويقول حاتم الطائي في شمال الجزيرة :

تَعْرِفُ أَطْلَالَ وَنُورًا مَهْدَمًا كخَطُّكَ في رَقِّ كِتَابًا مُنَمَّمًا

والنممة : التنميق . ويقول معاوية بن مالك من بني عامر بن صعصعة في غربي الجزيرة ذاكرًا مكان الطلل وأنه أسفل من نميل ، وهو ماء بقرب المدينة :

من الأَجْزَاعِ أَسْفَلَ مِنْ نُمَيْلٍ كما رَجَعْتَ بالقَلَمِ الكِتَابَا

كِتَابَ مَجْبَرٍ هَاجٍ بِصِيرٍ يَنْمِقُهُ وَحَازِرُ أَنْ يُعَابَا

والحبر : المنمق . والهاجي : القارئ . وواضح أنه حاول أن يدخل إضافة على

الصورة حتى يستتم التتميق . وبالمثل يحاول لبيد العامري ابن أخيه أن يضيف إلى الصورة إضافة جديدة ، إذ يقول :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبرٌ تجدُ متونهاً أقلامها

والزبر : الكتب . فلا تزال السيول تجري في الطلول ، ولا تزال تترك وراءها كتابات وخطوطاً جديدة ، وكأنما الأطلال كتب لا تزال تجد سطورها الأقلام .

ونكتفي بهذه الأمثلة من أشعار الجاهليين في تشبيه الأطلال بنقوش الكتابة ، وهي لا تكاد تُحصى عندهم كثرة ، مما يدل أقوى الدلالة على الطوايع الشعبية لأشعارهم وكل ما تشتمل عليه من صور ومعان . ول هذه الطوايع الشعبية كلها بقية ، فن المعروف أن أمثال الأمة تدخل في آدابها الشعبية ، لأن جميع الأفواه تلوكها في كل مكان ، يلوكها الشعراء وغير الشعراء ويلوكها الفصحاء وغير الفصحاء ، لأنها من عمل الشعب كله ، لا يختص بها أحد دون أحد . ولذلك كانت في أكثرها مجهولة القائل ، لأن قائلها عادة من أبناء الشعب الذين لا يهمهم أن يُنسب إليهم هذا المثل أو ذاك ، أو بعبارة أخرى لا يهمهم أن ينسب إليهم هذا الفضل ، بل هم آخرون يفكر فيه . ومن أجل ذلك كانت الأمثال من أهم ضروب الآداب الشعبية لأنها فعلاً تُنسب إلى الشعب كله ، ولأنها تدور على جميع الأفواه . وتلفتنا ظاهرة في الأمثال الجاهلية ، هي أن طائفة منها اقتبست من أشعار شعرائهم كقول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

والشطران جميعاً كانوا يتمثلون بهما ودلالتهما واضحة . ومن ذلك قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ودلالة البيت على المثل المضروب واضحة . وتمثلوا بشطور أبيات كثيرة . من ذلك قولهم : « رضيت من الغنيمة بالإياب » يضر بونه مثلاً للشخص يشقى في طلب الحاجة حتى تُعنته ، وحتى يتمنى الخلاص منها سالماً . وهو من قول امرئ القيس :

لقد طوّفت في الآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمة بالإياب

ومن ذلك قولهم : « خلا لك الجوف بيضى واصفري » يضر بونه مثلاً للشخص

لا يجد أى حائل بينه وبين حاجته ، وهو مأخوذ من قول طرفة فى قَبْرَة :

خلالكِ الجوُّ فيبضي واضفري ونقري ما شئتِ أن تُنقري

ومن ذلك قولهم : « لا تَعْدَمِ الحسناء ذاماً » يضربونه مثلاً على أن أحداً من الناس لا يخلو من شيء يُذَمُّ به ويُعاب ، وهو مأخوذ من قول الأعشى فى صاحبه قَتِيلَة :

وقد قالت قَتِيلَة إِذ رَأَتْنى وقد لا تَعْدُمُ الحسناء ذاماً

وهو باب متسع فى الأمثال الجاهلية ، ويدل بوضوح على أن مِنْ أبيات الجاهليين ما بلغ من ذبوعه على جميع الأفواه والألسنة بل من اتساع شعبيته أن تحوّل هو أو شطر منه مثلاً يضربه الناس فى المواقف المختلفة ، وقد غاب عنهم اسم قائله ، إذ أصبح اسمه لا يعينهم فى قليل ولا فى كثير ، إنما يعينهم المثل الشعبي نفسه .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الطوابع الشعبية فى الشعر الجاهلى . إذ كان يدور فى جميع الألسنة دوراناً أتاح لأبيات وشطوره أن تصبح أمثالا شعبية ، كما أتاح للشعراء أن يتمثلوا قصائده ويسيوها بحيث اتحدت الصيغ فى أشعارهم أحياناً ، كما اتحدت التشبيهات والصور والمعانى ورسوم القصيدة وما تترجم عنه من الحياة الشعبية للقبائل . وكانت تشترك فيه جميع الطبقات رجالاً ونساء ، وكانوا ينظمونه فى أعمالهم نهائراً ، كما كانوا ينظمونه فى سُراهم ليلاً حُداً . وكانوا ينشدونه جماعات ، تنشده النساء فى المآتم والأعراس والحروب وينشده الرجال فى التهليلات والتلبيات . وكان ينشد بلغة واحدة فى جميع أرجاء الجزيرة ، هى الفصحى ، وهى نفس لغة الضاد التى لا تزال حية باقية على الدهر .